قصة قصيرة

انكسار

مهدي جسير

عشرون سنة مضتْ على ذلك اليوم. قالت الفتاة: «ماما. هذا زميلي في الكلية». وضعتْ باقة من الأزهار البيض على حافة الشرفة. كانت أزهاراً حقيقية هذه المرّة. سمعتُها تهبط درجات السلم. قالت: «سوف نشرب معاً، ونسكن في الغرفة نفسها، ونتذكر أيامنا قليلاً».

رأت الحقيبة الممزقة، ورأت الكتب تندلق منها، وتسقط في النهر. لم يمرّ بخلدها أني سأطرق الباب. كانت ترتدي ثوباً أسود. ذهبنا معاً إلى الكلية. جلسنا في «نادي الكلية». لم يكن أحدنا ينظر للآخر. لمحتها عبر النافذة قادمة من فم الزقاق. كانت ترتدي قميصاً أصفر. وقد ربطت شعرها بشريط أبيض على شكل ذيل حصان. تسلقتْ درجات الجسر الخشبي القديم. رفعتْ رأسها نحو نافذتي. كنتُ أطهو طعامي. سمعتُ صوتها يرن في الحوش: لماذا غبتَ عن المحاضرة الأخيرة؟ سنذهب اليوم إلى خطيبي. لقد جمعتُ له كثيراً من شقائق النعمان.

إن ذلك اللون يصيبني بالدوار. كان ذلك منذ الطفولة. أخذنا أخي للختان في المستشفى. وجدنا أطفالاً عديدين سالت دماؤهم فوق الطاولات، وعلى بلاط الردهة. وضعوا أخي على طاولة مليئة بالدم. لم أتمالك نفسي. شعرتُ بالدوار، وسقطت مغشيّاً علي.

رأيتُ دمها ذلك اليوم. كان معلقاً في خرقة نشرتها مع الغسيل. كانت تستعملها بدلاً من «السانتي». أخبرتها بذلك في الكلية. خاصمتني. قالت استحِ يجب ألاّ تنظر إلى غسيل غيرك.

ذهبت إلى النهر ـ لم يأخذني أبي ـ كان ذلك في يوم حار. رأيتُ أبي يحرث الأرض بالمسحاة. لم تكن الأرض ملكاً لأحد. كان يملكها الله. اختار مكاناً منفرداً قريباً من الشارع العام وسط حقل شاسع من النخيل. بنى صريفتين أحاطهما بسياجٍ من القصب. ثم ابتاع تنوراً نصبه وسط الدار. أمي هي التي فخرت التنور. وأبي كان يحرث حقلاً خارج الدار. كنتُ أرى حماماتٍ بيضاً حطّت على كتف أبي، وأرى صورة «الملك» الصغير. كانت تهتز من قوة الريح الهابة من الباب. سمعتُ صراخاً حاداً حين سقطت صورة الملك انقطع فجأة مع جرس الدرس الأخير.

كانت مدرستنا على شط العرب. عرفتُ ذلك بنفسي، وأنا أرمي بحطام صورة الملك إلى الشط. جلستُ على صخرة. أسندتُ إليها قدمي. لمحتُ صفاً طويلاً من أشجار التين المزهرة. كانت الريح تكنس أوراقها الصفر وترميها بعيداً.

كنت أرقب شباك الصيادين منشورة فوق الماء، وأسمع أغاني قادمة من بعيد. من سفينة غادرت الشط. وتركتني وحيداً أحدق في زرقة السماء، وخضرة النهر، وبياض الغيوم. كنتُ راسباً في صفي. لم أذهب إلى البيت. استلقيتُ تحت ظلال الأشجار. سمعتُ أغاني البحارة، ولمحتُ سفنهم تمر من بين سعف النخيل.

اشتريتُ قميصاً أبيض. قميصاً بلون الغيوم. اشتريته من بحار بسط حاجاته في السوق. كان قميصاً نسائياً. شممتُ عطره، وأنا أرنو لعينين واسعتين غمرتاني في «قاعة الفرزدق». قال كاظم: هل تحبّها؟ قلت: لا أدري لكني سكنتُ عند أمها نزيلاً، أخذني كاظم إلى «القسم الداخلي». رتّب لي سكناً.

كانت بناية «القسم الداخلي» بثلاثة طوابق مطلّة على شط العرب. وفي نهاية الطابق انفتحت غرفتنا على ضوء الشمس. وهو ينكسر عبر النوافذ الزجاجية العريضة منذ الصباح الباكر، فيغمر حديقة شاسعة خلف بناية القسم زرعت فيها أشجار الموز والصفصاف، وسال فوق أديمها عشب أخضر، وزحفتْ نحوها شجيرات شوكية سامّة شكلت سياجاً طبيعياً. وقد هجر الناس

الحديقة منذ زمن، منذ أن ارتفع في منتصفها تمثال فتاة عمله كابتن الباخرة «ماريا» الذي قدم من اليونان، ورسا مقابل ساحل «كردلان». لقد أحبّ هذا الكابتن طالبة جميلة من القرية. كان يرقبها عبر الناظور وهي تهبط الجرف لتستقل زورقاً ينطلق بها إلى مدرستها في «العشار». كان أهل كردلان يتحدثون عن جمالها الباهر. كما أن طلاب القسم يعترضون سبيلها بمغازلات بريئة، مما دفع الكابتن لأن يهبط من كابينة القيادة، ويقود قارباً بخارياً يعترض به زورقها القادم من العشار. ثم يسبقها إلى الشاطىء، وحين رأته قادماً نحوها ارتبكت وهي تصعد درجات الرصيف. تسقط حقيبتها ـ تنحني لتلتقطها. وهي ترمقه بعينين مغمضتين. وجد الكابتن فيها شبهاً كبيراً بإغماضة عيني تمثال «فينوس». قالت: «أنا خائفة. هذا أول يوم أخرج فيه مع رجل، أخشى أن يراني أحد من طلاب القسم الداخلي». «لم يبق أحد منهم، قلت، فقد رحلوا». قالت: «سأمر على الصائغ لأقتني شيئاً من الذهب. وأعرّج على الكنيسة. أصلّي، فأنا غير واثقة من نجاحي هذا العام». لم أوصلها إلى المعبر. شيّعتُها بنظري. وقفتْ عند المرسى. استدارتْ نحوي. وأرسلتْ ابتسامة دون أن تلوّح لي. رأيت عينيها الواسعتين من بعيد. كم تسحرانني. عينان واسعتان كالساعة أو كصفحة الأفق. عرفتهما ذلك الصباح في معبر «ابن ماجد». قلتُ لها: «كم الساعة الآن»؟ قالت: «الثامنة والنصف. لقد تأخرنا». لم ننتظر الحافلة استأجرنا سيارة. أنا دفعتُ الأجرة. قالت: «شكراً. إني لم أرك سوى مرة واحدة ذلك اليوم». قلت: «لقد تأخرت أوراقي». كانت ترتدي قميصاً أبيض شفافاً تراءت منه خطوط ملابسها الداخلية. لم ألحق بها فقد هبطتْ إلى الزورق. فلم أر غير شعرها المتطاير.

قالت: «أنا مبتلّة». لقد أمطرت السماء. لماذا لا تخرج؟ سوف أخلع ثيابي في غرفتك. إن ضيوفاً ملأوا منزلنا هذا اليوم». اقتربت من النار. فتحتْ أزرار معطفها. قلت لها: «سأذهب إلى «العشار».» قالت: «هذا حسن. سأنام الليلة في سريرك. أنا متعبة جداً.»

مصابيح السفن والمراكب الراسية في عرض النهر تتراقص فوق صفحة الماء. مصباح أزرق معتم يسكب ضوءه فوق الطاولات. حركة سريعة لأمواج تتحطم، وصفير قطار قادم. ارتطمتْ دراجتي بجدار طيني طويل. لم يكن فيها كابح. سقطتْ كتبي. أين أذهب؟ سؤال حيّرني منذ الطفولة، وأنا أتلقى ضربات أبي، وأنا أركض، وأنا أجلس في المقهى، أو قاعة الدرس. قالت الفتاة: «إن أمي تحبك فأنت أحسن مستأجر سكن عندنا. أرجوك، لا تغادر بيتنا. فسوف أعود إليك». نعم، ستعود إنها صادقة. لكن هيهات! سوف يتبدد وجودك، وتنسكب أحلامك. ستجلس في المقاهي، وتنام في الأزقة، وستُحسُّ أن آلاف العيون تثقب جسدك، وأن عشرات الكلاب الهائمة في الليل ستقترب منك، وتتحسس ببوزها قدميك. وستبحث عنك امرأة في شوارع مغلقة، وأزقة عارية، وسوف تكون مرمياً تحت الكراسي المقلوبة، أو راكضاً خلف أشرعة السفن. وستعثر على كتاب لك ممزق على رصيف، وعلى ورقة تركتها على طاولة، وعلى كلمات حفرتها على العشب، أو رميتها في مباءة، وستكتب وتمزق، وتشتري كتباً وتبيع، ثم تشتري وتبيع، وتحرق. لقد رميت آمالك إلى الريح، وكلماتك إلى الماء، وحلمك إلى النار. لم يبق لك سوى تلك الفتاة. هل ترحل إليها؟ أو أنها ستعود إليك كما وعدت؟ كنت ترحل عنها ثم تعود. وفي كل مرة كانت تفتح قلبها لك، وتسكنك في الغرفة ذاتها، وتمنحك الحب ذاته، وتقدّم لك الورد ذاته. لقد ودعتك كأحسن ما يكون. أعطتْك قبلة في أحضان شريط القصب. قبلة صامتة على الطبيعة. قلت لها إنك ولدت الآن، وإنك لن تموت، وإنك ستنتظرها على تلك الصخرة، وسوف تنطلقان من جديد. في القارب ذاته. لكنها رحلتْ إلى مكان بعيد. ستعود الليلة إلى فراشك. ستشم رائحتها فيه. وسوف تحتفظ بذلك الفراش، كما تحتفظ بقميص نومها، وصليبها الذي تركته لك.

زجاجة أخرى أيها النادل. كأس أخرى يصبّها النادل بنفسه هذه المرة. وهو ينظر إليك. ارتفع صوت إنسان كان يغني عبر الشارع، وبرقتْ نجمة. ونجوم عديدة خبتْ من سمائك نجمة نجمة. كانت تخر لوحدها، دون ريح، دون عاصفة. أو سابق إنذار. ثم تموت هادئة هناك.

النادل فوق رأسك. يجب أن تغادر. كنت تبحث عن غيمة هادئة في الأفق. حين ترددت قليلاً قبل أن تدخل. الظلام هو الذي قادك إلى هذا المكان. ضوء أحمر ينث في الداخل. «خذ بطاقتك»، قال الرجل. لم يفتشك أحد. دفعتَ ديناراً ونصفاً. وبقي لديك دراهم قليلة بإمكانها أن توفر لك فطوراً. ثم لا تذهب إلى البيت.

وانتابتك فكرة ألاّ تذهب إلى منزلك أبداً. ألاّ تعود إليه. نوماً سعيداً أيتها الآنسة. نوماً فاضلاً. إن طريق الملهى هو الذي قادك إلى عشتار. راقصة مذهلة. كنت في الصف الثالث في كلية الحقوق. طرقتَ الباب. لم تكن تعرف أن ذلك المنزل للراقصات. خرجت امرأة بملابس النوم. فتحت كوة الباب. قلت: «عفواً لقد وجدتُ هذا المظروف عند حافة الباب. أأنت السيدة عشتار»؟ قالت: «نعم كنت نبيلاً». ابتسمت المرأة ابتسامة ماكرة وهي ترفع يدها عن صدرها المكتنز وتشير إلى ملهى «النجوم». قالت: «أنت معزوم الليلة. الساعة العاشرة مساءً.» رويت لفتاتك قصة الراقصة. لم تعلق بشيء. قالت: «سأذهب أنا إلى خطيبي، أقضي الليل معه».

لمحتها من نافذتي تدخل الحمّام. نادت: «ألا تريد أن تأخذ دوشاً هذا اليوم»؟ قلت: «لا». كان حمّامنا مشتركاً. سمعتها تغلق الباب. لا أدري لماذا تخيلتها عارية هذا اليوم على الرغم من أني لم أفكر بذلك يوماً. تخيلت أنها سوف تصعد الدرجات الثلاث، وسوف توقد شمعة. فليس في الحمام نور كهربائي. سوف تفتح أزرار ثوبها، ثم تحني نفسها قليلاً، وتمسك حاشية الثوب، وترفعه

عن جسدها، ثم تعلقه على مسمار، وتلقي نظرات على نفسها في المرآة، وتفتح مشابك شعرها فيتدفق ناعماً فوق كتفيها، ثم تمسك حاشية قميصها الداخلي وترفعه. وبعد أن تعلقه ترى نفسها في المرآة.

كنت أسمع الماء وهو يتصبب من جسدها. وأسمعها تغني، وأشم رائحتها. رائحة عطر الليمون. لمحتها في الجانب الآخر. لم تكن لي تلك الحدة من النظر، لكني عرفتُ قميصها الأصفر. تقابلنا في منتصف النهر. هي عائدة من الجامعة، وأنا ذاهب إليها. فكان النسيم يعبث بشعرها وهي تحاول الإمساك به دون جدوى. وكانت تمسك بيدها الأخرى طرف تنورتها.

أريتها الكف التي أرسلها أخي في رسالته. اندهشت وهي ترى الخطوط المتشابكة المرسومة بالقلم الجاف. قصدت سوق السحرة وقارئي الكف. دخلت أحد الدكاكين. سمعتُ كلاماً وتسبيحاً. خرج لي رجل ملتحٍ لفّ رأسه بعمامة خضراء. ناولته الرسالة وأنا أحدق في عينيه الغائرتين. قال: كم عندك من النقود؟ قلت: دينار واحد. قال: عظيم. أعطني نصفه. أعطيته نصف الدينار دسّه في جيبه وهو يحدق دهشاً بالكف التي أرسلها أخي. قال وهو يمدّ يده لي: كفك باقية أيها الأخ.

خرجت من دكان «السُحيلي». استنشقتُ الهواء العذب. شعرتُ بصداع. هل مات أخي حقاً؟ سرتُ في السوق تعثرت خطاي بتوابيت عديدة معروضة أمام الدكاكين. شعرتُ بدوار. كدتُ أسقط. لكنّ يداً ناعمة امتدت نحوي. كنتُ في حديقة مزدانة بالورد. قالت: «معذرة. فقد تأخرت. كنت في المختبر». قلتُ لها: «لم أتعشَ البارحة. أنا جائع جداً». ذهبنا إلى «نادي الطلبة». دخلنا من الباب الزجاجي الواسع. أخذنا قدحين من الشاي، وجلسنا نشرب.

سمعت غناءها يرن في البيت. استبدلت ثيابي وهبطتُ درجات السلم ثمّ أغلقتُ الباب، عند منتصف الجسر وقفتُ مصغياً لصوت الماء وهو يتدفق سريعاً. كان قادماً من بعيد. من شط العرب. كنا قد غسلنا ثيابنا ونشرناها فوق جذوع النخيل. سمعت صوت أخي يتردد في الغاب. لقد عبر النهر وهو يلوح بيده. كان المد قد ارتفع عالياً. وقد توقف عن الجريان. صاح أخي: أتراهن على أني سأعبر؟ أجاب صيَّاد رمى سنارته تحت «برهامه»: إذا عبرت سأعطيك الصيد. وربح أخي الصيد. تناولنا غداءنا على العشب ذلك اليوم.

كانت تتكىء على حافة الشرفة، وتلف شعرها المبتل بمنديل، قالت: «إني أحتاج إلى مناديل عديدة ألفُّ بها شعري حين أعبر شط العرب. فالريح تبعثر خصلاته، ولا يعود إلى وضعه السابق. «اشتريت لها ثلاثة مناديل مشجّرة من سوق الهنود. صارت تربط بها شعرها كلما عبرت النهر. مرة سحبتُ المنديل من شعرها ونحن في الزورق فتطايرت خصلاته في الريح. خاصمتني يوماً كاملاً. تغيّبنا عن الجامعة. تعلمنا أن نتمرد على المحاضرات، نذهب إلى «المكتبة المركزية» نختلي في قاعة المطالعة ساعات لا نفعل شيئاً سوى أن ننظر إلى بعضنا. وحين نجوع نركب المعبر عائدين إلى العشار نشتري «السمبوسة». أو نصعد إلى «مطعم حداد». نجلس لصق النافذة. نرى الجموع الغفيرة الذاهبة، أو القادمة من سوق الهنود، وهي تعبر الجسر الصغير، ونرقب ظلال الأشجار الوارفة على النهر. قالت وهي تأخذ راحة يدي: «أنا لا أحبك لكني أحنُّ إليك، لا تتصور بأني سأحيا بدونك». هبطنا من المطعم. مررنا بالكنيسة. قالت: «فلأذهب للصلاة». سمعتها ترتل القداس. كانت فرحة. قالت: «صلّيتُ من أجلك، من أجل أن يمنحك الله الحياة والحب».

جلسنا على صخرة في نهاية شارع الكورنيش. قالت: «هذا وقت جميل للتنزه». كنا وحدنا على الشاطىء. وثمة زورق راسٍ على الجرف أشرتُ إليه. قالت: «أنا خائفة». قلت: «لا عليك. أنا أعرف السباحة. بإمكاننا أن نستقله وندخل شريط القصب ذاك». هبطنا معاً. انطلق الزورق سريعاً، ثم استدار. ابتعدنا عن الجرف والأشجار. لاذت بالصمت وهي تترك شعرها يتقافز، وتترك الريح تعبث بتنورتها وتكشف عن ساقيها الجميلتين. وصلنا إلى الجانب الآخر. دخلنا شريط القصب. قالت: «هل رأيت مني شيئاً؟ لقد كنتُ خائفة فلم أستر نفسي». قلت: «نعم. كنتُ أرنو لبريق عينيك حين سقط نظري على زهرة حمراء».

وقفتُ على درابزين مرسى العبور أفرق أوراقي ودفاتر المحاضرات، كان المرسى خالياً من الناس. وقد سافر الطلاب، وخلا القسم الداخلي منهم. وضعتْ قدحاً من الشاي على الطاولة. قالت: «وداعاً سوف نرحل. لقد عملنا جواز السفر، وغداً نغادر الميناء. بعد أسبوع نصل إلى «كيب تاون». ثم ننطلق إلى «أمستردام». ارتشفتُ الشاي، وحدّقتُ في قميص نومها المخطط، وعينيها الواسعتين.